الفصل السابع

المراهقة

بعد الحرب العالمية الثانية أصبحت المراهقة هدفاً للاكتشافات من قبل وسائل الإعلام المختلفة ومنها الصحافة، كذلك من قبل المختصين بالعلوم الإنسانية وخاصة علماء النفس وعلماء الاجتماع[1].

وقد تأخرت الدراسات التي تتناول المراهقة في علم النفس وسبقتها في ذلك دراسات الطفولة، ولكن اليوم تعرف المراهقة اهتماماً كبيراً، وذلك لأنها الفترة الأطول التي تفصل الطفولة عن الرشد. ونستطيع أن نقول بأنه لا توجد مراهقة حقيقة في كل المجتمعات وحتى حيث توجد فإنها لا تظهر في كل الأوساط الاجتماعية؛

ذلك أنه عندما تصبح المراهقة مرحلة يمر بها العدد الأكبر من أطفال المجتمع فإنها عندئذٍ تطرح مشكلات نظرية وحياتية في الوقت نفسه، إذ ليس بالإمكان الاهتمام بالناحية النفسية أن يسبق الاهتمام بالتطور الاجتماعي.

ينتفي في المجتمعات البدائية وجود المراهقة بمعناها الحالي ذلك أن المرور من المراهقة إلى البلوغ والرشد يتم من خلال الطقوس والأعمال التي يبدأ المراهق بممارستها ويقلد بها الراشدين، ثم يتم اندماجه في مجتمع الكبار فيشارك الكبار في كل نشاطاتهم.

ولكن اليوم يتأخر دخول المراهقين إلى ميدان العمل فتفصل فترة مهمة بين النضج وبين الانخراط في الحياة وهذا ما يشكل أزمة المراهقة بحسب قول اڤنزيني (Avanzini)، ذلك أن فترة الدراسة قد طالت بسبب التعليم الإلزامي في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى إن الدخول إلى ميدان العمل يتطلب إعداداً طويلاً، بالإضافة إلى أن الآباء بدأوا يعمرون طويلاً مما يمكنهم من القيام بواجباتهم المادية تجاه أبنائهم،

(1) G.Avanzini: Le Temps de l'adolescence, èd. Universitaires, Paris, 1978.

بالإضافة إلى عدم حاجة سوق العمل إلى أيدٍ عاملة.

ولكن ما ذكرنا، ليس النظرية الوحيدة التي درست المراهقة وفسرتها، إذ إن معظم السيكولوجيين كانوا يعتقدون بأن الانتقال من المراهقة إلى الرشد يحمل معه ما يشبه الأزمة، هكذا على الأقل فهمها ستانلي هول سنة 1904، ومن بعده عدد كبير من علماء النفس مسمياً إياها «مرحلة العاصفة» لكن علماء النفس المعاصرين بتأثير من الدراسات الحضارية الانتروبولوجية لم يعد لديهم إيمان بهذا القول مطلقاً.

لقد تناولت مرجريت ميد موضوع أزمة المراهقة عند الفتيات من واقع بحوثها لإحدى القبائل البدائية فقالت: «نلاحظ أن المراهقة لم تكن تمثل فترة أزمة وانعصاب بل كانت بدلاً من ذلك ارتقاءً منتظماً لمجموعة من الاهتمامات وضروب النشاط الآخذة في النضج على مهل، فلم تكن تغشى أذهان الفتيات صراعات تقلقها مسائل ذات طابع فلسفي ولم تكن تشغلها مطامح بعيدة المدى، بل كانت المطامح السائدة في أن تتزوج الفتاة في قريتها وعلى مقربة من أهلها وأن تنجب أطفالاً كثيرين».

ولا شك إذاً أن المراهقة ليست بالضرورة أزمة عاصفة، إنها قد تتحول إلى أزمة وشدة إذا أراد لها المجتمع ذلك، فإذا كان المجتمع هادئاً في تقبله لمرحلة الانتقال من الطفولة إلى المراهقة، فإن خصائص الأزمة فيها بالإمكان أن تتضاءل إلى حدٍ بعيد.

إن النظريات والدراسات التي تناولت المراهقة كثيرة ومتنوعة ومختلفة في نظرتها وتفسيرها، ولاتزال التساؤلات قائمة حتى الآن: هل توجد بالفعل أزمة للمراهقة؟ وهل هذه الأزمة ترتبط بطبيعة النمو البيولوجي والجنسي، وأم أنها ترتبط بالعوامل الاجتماعية والنفسية؟

في الوقع لا يوجد تعريف واحد للمراهقة يرضى عنه الجميع؛ يقول «كارل روجرز» بأنه يمكن تعريف المراهقة بطرق عديدة مثلاً: هي فترة نمو جسدي وظاهرة اجتماعية ومرحلة زمنية وفترة تحولات نفسية عميقة، وهذه الفترة تمتد من سن البلوغ إلى سن العشرين.

معنى المراهقة:

المراهقة هي فترة من النمو معروفة بصعوباتها؛ فالطفولة معروفة بخصائصها ومميزاتها، ولها وضعية خاصة بها، وعالم الطفولة معترف به في كل مكان؛ والمراهقة في بدايتها كأنها ترمي عالَم الطفولة، ولكن المراهق لم يدخل بعدُ عالم الراشدين، فهو

في موقف حرج كمن يقف بين بابين؛ وهو ينتظر ليعرف من هو، ماذا سيفعل، من يحبه، ولكي يهرب من هذا الانتظار، فإنه يلجأ إلى عالم الأحلام، عالم الأفكار حيث يمكنه أن يجد لنفسه مكاناً. يقال إن المجتمعات الحديثة فقدت الحس في تعليم وتدريب المراهقين: ففي أغلب الأحيان يُترك المراهق لنفسه وهو يقوم بالرحلة من الطفولة إلى الرشد بكل ما فيها من مصاعب بمفرده، وفي مكان آخر فإن المراهقة هي المرحلة الأكثر عطاءً في الحياة؛ ففي حين أن الجسم ينبني ويبلغ قمة نضجه وخصوصاً من الناحية الجنسية فإن جهوداً كبيرة تبذل على مستوى البنيات العقلية، ومحاولات التكيف الاجتماعي، ويحصل هذا في بنية مستعدة للإبداع.

ومصطلح مراهقة في اللغة الأجنبية (Adolescence) يشتق من اللغة اللاتينية (Adolescentia) والفعل معناه «كبر»، والمراهقة هي المرحلة التي ينتقل فيها الكائن من الطفولة إلى الرشد ـ بحسب معجم (Littré) ـ؛ أي أن المراهقة هي الانتقال من الاتكالية إلى مرحلة الاعتماد على الذات.

أما في اللغة العربية فالمراهقة تعني الاقتراب أو الدنو؛ فحين نقول راهق الغلام، فهو مراهق، أي أنه قارب الاحتلام؛ والحُلْم هو قدرة المراهق على الإنجاب.

المراهقة والبلوغ:

يشكِّل البلوغ المظهر البيولوجي لمرحلة المراهقة، وهو يشمل المرحلة التي يصبح فيها الكائن قادراً على التناسل؛ ويحدث البلوغ في العادة في فترة محدودة نسبياً من فترات النمو، ويصاحب بسلسلة من التغيرات تكون ظاهرة على مستوى الأعضاء التناسلية.

والمعنى الحقيقي لكلمة بلوغ بالأجنبية (Puberty - puberté) التي تشتق من اللاتينية)puber) أو (pubis) وتعني شعر العانة.

وفي الواقع يقصد بالبلوغ المرحلة التي يتم فيها النضج الجنسي الذي يحصل عند الإنسان خلال مراحل تستمر فترات طويلة، تنتهي في العادة في الوقت التي تصل فيه الفتاة إلى مرحلة نضج المبيضين وبدء الطمث، والفتى إلى مرحلة القذف.

ولكن لا يصاحب أول حيض تحرر البيوض من المبيض، أو أن أول القذف يحتوي الحيوانات المنوية.

هنا إذن تكمن الصعوبة في معرفة الفترة التي تبدأ وتنتهي فيها مرحلة البلوغ في

الواقع العملي؛ أي الفترة التي يصبح فيها الكائن قادراً على التناسل، لأنه من الخطأ الاعتقاد بأن البلوغ يحدد بظهور الطمث أو قذف المني؛ فعملية البلوغ هي عملية تحول كلي لمختلف أعضاء الكائن وأجهزته، ويكتمل البلوغ عندما يصل الجسم إلى أقصى نموه من حيث الشكل أو وظائف الأعضاء. وعند انتهاء عملية البلوغ بإمكان الذكور والإناث الإنجاب.

وبصورة عامة، يحدد ابتداء البلوغ عند الأنثى انطلاقاً من عمر 11 سنة ويستمر حتى سن 16، 17 سنة، ويحدث البلوغ عند الذكر في عمر 13 سنة ويستمر حتى سن 17 سنة.

وقد قُسمت هذه المرحلة الطويلة من النضج المتدرج إلى ثلاث فترات:

- الفترة الأولى: ما قبل البلوغ ـ من سنة ونصف إلى سنتين ـ.
- الفترة الثانية: فترة البلوغ ـ التي يطلق عليها أزمة البلوغ ـ مدتها من ستة أشهر إلى سنة.
- الفترة الثالثة: ما بعد البلوغ ـ وتستمر من سنة إلى سنتين.

العوامل المؤثرة في البلوغ:

تُجمع الآراء اليوم على أن هناك ثوابت عرقية ووراثية لها تأثيرها في عملية البلوغ المبكر أو المتأخر؛ كما أن هناك اعتقادات خاطئة حول مؤثرات البلوغ، منها أن البلوغ يحدث في سن مبكرة عند شعوب سكان المناطق الجنوبية، بينما يتأخر عند شعوب سكان المناطق الشمالية.

ولتوضيح ذلك كان لا بدَّ من البحث في العوامل التي لها دور في تسريع عملية البلوغ أو تأخيرها.

1 ـ إن المناخ الحار والشمس والضوء هي عوامل تؤثر في البلوغ المبكر. ولكن لوحظ أن هناك شعوباً أفريقية لا يظهر البلوغ عند أفرادها قبل سن 16 سنة؛ وليس بالإمكان الأخذ بهذه الحالات كقاعدة عامة، إنما هي في الواقع حالات استثنائية؛ فأمر طبيعي أن يحدث الطمث عند الإناث في أفريقيا عامة والشرق لدى بلوغهن 9 سنوات أو 10 سنوات.

2 ـ ظروف الحياة والمستوى الاجتماعي لهما تأثيرهما أيضاً، فعادةً تتأخر سن البلوغ

لدى الطبقات الفقيرة عن تلك السن لدى الطبقات الغنية. ومن المنطقي الاعتقاد بأن سوء التغذية بالإضافة إلى سوء العناية الصحية، يشكلان مصدراً لأمراض تضعف الجسم وتؤثر في تأخير عملية البلوغ كما تؤثر في تأخير عملية النمو بصورة عامة. وقد تبين أن جميع الأسباب التي يمكن أن يكون لها تأثير في عملية النمو تنعكس على عملية البلوغ. لذلك يُلاحظ أن تطور ظروف الحياة في البلاد النامية في الميدان الاقتصادي أدى إلى الازدياد المطرد والعام في طول قامة الأفراد. وهذا الازدياد في القامة صاحبه ازدياد في إمكانية البلوغ المبكر، وخصوصاً عند الذكور؛ فاليوم نرى أن الذكور الذين تظهر عليهم علامات النضج الجنسي ما بين سن 13، 14 سنة، هم أكثر عدداً عما كان الوضع قبل ثلاثين أو أربعين عاماً.

يفسر بعض الدارسين ذلك بشدة الاستثارات للجهاز السمباتي (Sympathique)، والتي تحدثها الحياة العصرية؛ فالضوء الاصطناعي والضجيج والاستثارات البصرية والعاطفية تستثير جميعها الجهاز العصبي مما يؤدي إلى تنشيط عملية الأيض (métabolisme)؛ وهذا ما يفسر التزايد في القامة والظهور المبكر لعملية البلوغ.

3 ـ تأثير المنشطات الجنسية: إن المنبهات الجنسية التي تبثها وسائل الإعلام والدعاية من تلفزيون وسينما وصحف ومجلات، لها تأثير كبير في ظهور البلوغ المبكر بسبب تنشيط الغدد المسؤولة عن الإثارة الجنسية الواقعة تحت تأثير المراكز العصبية. أما كيف يتم هذا التأثير؟؛ ففي الدماغ منطقة تعرف باسم «المركز الجنسي» وفي هذا المركز توجد أوالية (mécanismes) تصد إفرازات الهرمونات التي تستثير الخلايا الجنسية، أي الخصيتين عند الذكر والمبيضين عند الأنثى. في مرحلة البلوغ ينحسر هذا الصد، وهذا مؤشر علي بداية البلوغ. وهذه العملية المعقدة تتأثر بالإپوتالموس والغدة النخامية. وكما هو معلوم، فإن الغدد الجنسية واقعة تحت تأثير القشرة الدماغية. لذا فالمنبهات الجنسية تصل إلى القشرة الدماغية التي تؤثر بدورها في مراكز الصد أو الضبط.

وهكذا يبدو أن العوامل الثابتة لتحديد بدء البلوغ هي من طبيعة داخلية وليست خارجية مثل المناخ أو الظروف الاجتماعية.

4 ـ العرق: للعرق دور أساسي؛ إذ إن الدراسات المقارنة أظهرت أن البلوغ يحدث في

سن متأخرة نسبياً عند اليابانيين والصينيين مهما كان المناخ. كذلك الإناث في العرق السامي يبلغن قبل الإناث في العرق الجرماني، على الرغم من كونهن يعشن في المناطق المناخية نفسها ويخضعن للظروف نفسها.

5 ـ الوراثة: يبدو أن الوراثة من أهم العوامل في البلوغ؛ فهناك عائلات يحصل فيها البلوغ في سن مبكرة، وهناك عائلات أخرى يحصل فيها البلوغ في سن متأخرة.

وقد أكّدت الدراسات أن الفتاة تتأثر بأمها في عملية الحيض من حيث العمر الذي يحصل فيه الحيض واضطرابات الحيض.

أسباب البلوغ:

إن الغدد الجنسية التي كانت حتى الآن في حالة كمون تستيقظ بفعل الهرمونات التي تفرزها الغدة النخامية[1] بتأثير النشاط المتولد عن «مركز جنسي» يقع في أسفل الدماغ. فمن هذا المركز تنطلق الشحنات التي تطلق النشاط الهرموني الذي يكون مسؤولاً عن إحداث التغيرات المورفولوجية التي ستحدد مظاهر البلوغ. وهذه التغيرات التي تحدث في البلوغ تتم بحسب خطة مرسومة ومحددة وراثياً هي نتاج عملية صبغية[2]، فالتطور الجنسي إذاً يؤلف جزءاً من الإرث الصبغي للفرد.

إن هذا الاتجاه في التفسير تؤكده اليوم التأثيرات الوراثية التي توجه النمو وشكل التطور عند كل فرد.

ولكن التجربة العيادية تبيِّن أن هذه التأثيرات التي بالإمكان أن تحدث نتيجة اضطرابات تحدث قبل الولادة أو بعد الولادة أن لا تصل إلى غايتها. لذلك، يمكن القول إن البلوغ هو ظاهرة طبيعية يتطلب ظهورها تكامل الأواليات العصبية والهرمونية الضرورية لاستكمالها؛ فالمظهر الطبيعي للبلوغ يتوقف في نهاية الأمر على الفعالية الوظيفية للغدة النخامية والغدد الصماء التي تنشط بفعل الشحنات المتأتية من الجهاز ما تحت السرير (الإپوتالموس).

---

(1) الغدة النخامية: Hyophyse.

(2) صبغيات: Chromozomes.